أو ناسياً لإحرامه، فعليه جزاءٌ مثل ما قتل من النَّعَم وشِبْه ما قَتَلَ في الخِلْقة. والذي عليه الجمهور أنَّ العامد والنَّاسي سواءٌ في وجوب الجزاء عليه[1] والنَّعَم، وقد تسكّن عينه، الإبل والشّاء[2]، وقد حكم الصَّحابة رضوان الله تعالى عليهم في النَّعامة ببدنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنزٍ[3]، ويحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة في غير المِثْل عَدْلان من المسلمين[4]، فقيهان عالمان من أهل الدين والفضل[5]: ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ أي واصلاً إلى الكعبة. والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرّق لحمه على مساكين الحرم، وهذا أمرٌ متّفق عليه في هذه الصّورة:

«وقوله: ﴿أو كفّارةٌ طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾، أي إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النَّعم، أو لم يكن الصَّيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتَّخيير في هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصّيام كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وأحد قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد رحمهم الله لظاهر أو بأنَّها للتَّخيير، والقول الآخر إنَّها على التَّرتيب، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة فيقوّم الصَّيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه وحمّاد وإبراهيم وقال الشَّافعيّ: يقوّم مثله من النّعم لو كان موجوداً ثمّ يشتري به طعام فيتصدّق به فيصرف لكلّ مسكين مدّ منه عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز. واختاره

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٩٨).

(٢) القاموس المحيط: «نعم».

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٩٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٩٩).

(٥) تفسير الطبري (٧/ ٣١).

ابن جرير. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يطعم كلّ مسكين مدّين. وهو قول مجاهد. وقال أحمد: مدٌّ من حنطة أو مدّان من غيره.

فإن لم يجد أو قلنا بالتّخيير صام عن إطعام كلّ مسكين يوماً. وقال ابن جرير: وقال آخرون: يصوم مكان كلّ صاعٍ يوماً كما في جزاء المُتَرَفِّهِ بالحلق ونحوه، فإنَّ الشارع أمر كعب بن عُجْرة أن يَقْسِمَ فِرْقاً بين ستّة، أو يصوم ثلاثة أيّام. والفَرْق: ثلاثة آصع. واختلفوا في مكان هذا الإطعام فقال الشافعيّ: مكانه الحرم. وهو قول عطاء. وقال مالك: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصّيد أو أقرب الأماكن إليه. وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم وإن شاء أطعم في غيره»[1].

عن ابن عباس قال: إذا قتل المحرم شيئاً من الصّيد حكم عليه فيه. فإن قتل ظبياً أو نحوه فعليه شاةٌ تذبح بمكّة. فإن لم يجد فإطعام ستّة مساكين. فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيّام. وإن قتل أُيَّلاً[2]، أو نحوه فعليه بقرة. فإن لم يجد أطعم عشرين مسكيناً. فإن لم يجد صام عشرين يوماً. وإن قتل نعامةً أو حمار وحشٍ أو نحوه فعليه بدنةٌ من الإبل. فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً. فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً. والطَّعام مدٌّ مدٌّ يشبعهم[3].

وفي القول: ﴿ليذوق وبال أمره﴾، تبين الآية الكريمة أنَّ الله سبحانه وتعالى أوجب على قاتل صيد البرّ محرماً ما أوجب من الحق أو الكفارة كي يذوق وبال أمره وعقوبة ذنبه بإلزامه الغرامة والعمل ببدنه ممّا يتعبه ويشقّ عليه. وأصل الوبال الشدة في المكروه[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٠).

(٢) الأُيّل بضمّ الهمزة وكسرها الذّكر من الأوعال.

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٣٨).

(٤) انظر تفسير الطبري (٧/ ٣٨).

وفي القول: ﴿عفا الله عما سلف﴾ تقرّر الآية أنَّ الله سبحانه وتعالى قد عفا عن المحرم عمّا سلف من قتله صيد البرّ قبل التَّحريم. وفي القول: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه. والله عزيزٌ ذو انتقام﴾، تقرّر الآية أنَّ من عاد إلى قتل صيد البرّ وهو محرمٌ بعد علمه بالتَّحريم، فإنَّ الله سبحانه وتعالى ينتقم منه. ينتقم منه في الآخرة بالعذاب الأليم، وفي الأولى بالكفّارة. إنَّ الله سبحانه وتعالى عزيزٌ في ملكه ذو انتقامٍ لمن عصاه وتعدّى حدوده.

ولمّا كان حديث الآيتين الكريمتين عن صيد البرّ، وكان ثمَّة صيدٌ آخر هو صيد البحر، فقد تحدَّثت الآية الكريمة التَّالية في هذا المعنى، فإلى:

الآية رقم (٩٦)

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

تقرّر الآية الكريمة أنَّ الله سبحانه وتعالى أحلّ لنا ونحن حلالٌ ومحرمون صيد البحر، وهو ما أخذ منه حيّاً، وطعامه، وهو ما لفظه ميتاً[1]، متاعاً لنا ومنفعة إن كنّا حاضري البحر ومجاوريه، وللسيَّارة، جمع سيّار، وهم السَّائرون من أرضٍ إلى أرضٍ والمسافرون يتزوّدونه في سفرهم مليحا[2]، وعنى بالبحر في هذا الموضع الأنهار كلّها. والعرب تسمّى الأنهار بحاراً كما قال تعالى ذكره: ظهر الفساد في البرّ والبحر[3].

كما تقرّر الآية الكريمة أنَّ الله سبحانه وتعالى حرَّم علينا صيد البرّ ما دمنا محرمين بحجٍّ أو عمرة.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ١٠١).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٤٥).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٤٢).

ومن البيِّن عنصر الحركة في الآية الكريمة بشأن المسافرين بحراً وبرّاً. ومن البيِّن أنّنا بصدد أحكامٍ تتطلب مراعاتها تقوى الله تعالى في المقام الأوّل. وإنَّ التّذييل يأخذ بسبب من هذه المعاني. قال تعالى: ﴿واتّقوا الله الذي إليه تُحْشَرون﴾.

عن أبي هريرة أنَّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّا نركب البحر نحمل معنا القليل من الماء، فإن توضّأنا به عطشنا أفنتوضّأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: هو الطَّهورُ ماؤه الحِلّ ميتته. وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وأهل السنن الأربع وصحّحه البخاريّ والترمذيّ وابن خزيمة وابن حبّان وغيرهم. وقد روي عن جماعةٍ من الصَّحابة، عن النَّبيّ ﷺ بنحوه[1].

وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: أحلّت لنا ميتتان ودمان. فأمّا الميتتان فالحوت والجراد. وأمّا الدّمان فالكَبِد والطِّحال. ورواه أحمد وابن ماجه والدَّارقطنيّ والبيهقي. وله شواهد. وروي موقوفاً. والله أعلم[2].

وروى الإمام أحمد أنَّ رسول الله ﷺ قال: صيد البرّ لكم حلال، قال سعيد (بن منصور) وأنتم حرم. ما لم تصيدوه أو يصد لكم[3].

• • •

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٢).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٤).

- ١٥ -

حرمة المكان والزمان، وأحكام في الحلال والحرام، ومسئولية الناس عما يعملون

الآيات (٩٧ - ١٠٥)

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ۖ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ۖ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

حديث السورة الكريمة مستفيضٌ في الحلال والحرام. وممّا تحدَّثت عنه السورة الكريمة في القسم السابق صيد البرّ الحرام على المحرم بحجّ أو عمرة وكفّارته، وصيد البحر الحلال للمحرم. وللحجّ على جهة الخصوص علاقةٌ متينةٌ بحرمتي الزَّمان والمكان معاً، وقد تحدَّثت آيات القسم الّذي نحن بصدده عن حرمتي المكان والزَّمان وبعض الأحكام وعن المسؤوليّة. إنَّ السياق يقرّر أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل الكعبة البيت الحرام، والمراد الحرم كلّه: «قياماً للنَّاس» يقوم به أمر دينهم بالحجّ

والعمرة وأمر دنياهم بالرّزق من كلّ الثمرات. كما جعل الله تعالى الأشهر الحرم قياماً للنّاس والهدي والقلائد، وهو ما يُهْدَى إلى البيت الحرام من الهدي غير المقلّد والهدي المقلّد. وبهذا يكون الإطعام من الجوع والأمن من الخوف عمادي ما يقوم به أمر الدّين والدّنيا. إنَّ الله سبحانه وتعالى جعل كلّ ذلك ليعلم النّاس أنَّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما في السماوات وما في الأرض وليعلموا أنَّ الله تعالى بكلّ شيءٍ عليم ومن ذلك ما تقوم به مصلحة العباد ديناً ودنيا. إنَّ الله سبحانه وتعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ، وليس على الرسول إلاَّ البلاغ، والنّاس وراء ذلك مسؤولون أمام الله تعالى الّذي يعلم ما يبدون وما يكتمون. ولمّا كان ثمَّة نفوس ملتوية تفضّل الخبيث على الطّيّب وتؤثر الكثير الحرام على القليل الحلال كان من السياق توجيهٌ لهذه النفوس كي تضع الأمور مواضعها مسترشدةً بنعمة العقل، مهتديةً بنور التّقوى كي تُفْلح بإذن الله تعالى وتنجح. ولمّا كان تفضيل الخبيث على الطيّب نوعاً من الاعتداء بإحلال ما حرَّم الله تعالى، وكان في المقابل اعتداءٌ من نوعٍ آخر يتعلّق بتحريم ما أحلَّ الله تعالى فقد كان من السياق سدّ للباب الّذي يصحّ أن يأتي منه هذا النّوع من الاعتداء وذلك بنهي المؤمنين عن سؤال المصطفى ﷺ عن أشياء إن تُبْد لهم تسؤهم. إنَّ عليهم أن يسألوا عنها حينما ينزل القرآن الكريم بها. وفي مقابل النّهي عن إنشاء أسئلةٍ جديدة هنالك تقريرٌ بعفو الله تعالى عن الأسئلة السابقة وبمغفرة الله تعالى وحلمه. ويبيّن السياق الحكمة من النّهي وهي أن أتباع النّبيّين السابقين سألوا وألحفوا في السؤال وشدّدوا على أنفسهم وعجزوا عن الوفاء بما ألزموا أنفسهم به. وممّا له علاقةٌ بتحريم العرب ما أحلّ الله تعالى تحريمهم البحيرة والسّائبة والوصيلة والحامي وادّعاؤهم أنَّ الله

سبحانه وتعالى هو الّذي حرَّم ذلك وتعطيلهم عقولهم وإصرارهم على اتّباع خطوات آبائهم الضَّالين ورفضهم اتّباع تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين. وتأمر آخر آيات القسم الّذين آمنوا بأن يصلحوا أنفسهم، وتبيِّن لهم أنَّهم لا يضرّهم من ضلّ إذا اهتدوا لأنَّ كلّ إنسان مسؤولٌ وحده أمام الله تعالى، وتخبرهم بأنَّ مرجع الخلائق إلى الله تعالى فينبّئهم جميعاً يوم القيامة بما كانوا يعملون ويجازيهم وفق تلك الأعمال.

• • •

الآية رقم (٩٧)

قال تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾.

تقرّر الآية الكريمة أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للنَّاس وجعل الشّهر الحرام والهدي والقلائد كذلك وحينما نتبيَّن أنَّ الكعبة والبيت الحرام ذوا علاقة بحرمة المكان، وأنَّ الشّهر الحرام، والمراد به الأشهر الحرم، ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم ورجب، ذو علاقةٍ بحرمة الزَّمان، وكلٌّ من حرمة المكان والزَّمان تتعلَّق بالأمن من الخوف، وأنَّ الهدي والقلائد ذوات علاقة بالإطعام من الجوع نستطيع أن نفهم القول: ﴿قياماً للنَّاس﴾، بأنَّه يشير إلى هذه الأمور التي يقوم بها أمر النَّاس في دينهم ودنياهم ومعاشهم وعاقبة أمرهم.

ولمّا كانت حدود الحرم تشمل الكعبة والبيت الحرام الّذي يضمّها أعني المسجد الحرام وكلّ الحرم فذلك معناه أنَّ معنى القول: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للنَّاس﴾، جعل الله تعالى الحرم قياماً للناس. عن مجاهد قال: إنَّما سميت الكعبة لأنَّها مربَّعة[1]، وأمّا الكعبة فالحرم كلّه.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٩).

وسمّاها الله تعالى حراماً لتحريمه إيّاها أن يصاد صيدها أو يُخْتَلى خلاها[1]، أو يُعْضَد شجرها[2].

إنَّ جزيرة العرب قبل الإسلام لمّا كانت بمثابة البركان الّذي يغلي بالمعارك وسفك الدماء والأخذ بالثّأر فقد شاء الله تعالى رأفةً بالعباد وتحقيقاً لمنافعهم أن يمكّن لهم حرماً آمناً يُجْبى إليه ثمرات كلّ شيء. وقد تمثّل ذلك في الحرم الّذي يمثّل حرمة المكان. ولمّا كان هذا المكان صغيراً بطبعه فقد شاء الله تعالى الّذي وسعت رحمته كلّ شيء أن تسع غير سكّان الحرم وقاصديه فكانت حرمة الزّمان التي تتمثّل في الأشهر الأربعة الحرم، ذي القعدة وذي الحجّة والمحرّم ورجب. لقد كان تقديس العرب لحرمة المكان وحرمة الزّمان كبيراً. إنَّ العرب المعروفين بالحرص على الأخذ بالثّأر، مهما كان الثمن غالياً، حينما كان الواحد منهم يرى في الحرم أو في الأشهر الحرم قاتل أعزّ النّاس إليه لا يمسّه بسوء[3].

وإذا كان الحرم الآمن يتحقّق فيه الأمن من الخوف، فإنَّه يتحقّق فيه كذلك الأمن من الجوع. وقد قال تعالى[4]: ﴿لإيلاف قريش.إيلافهم رحلة الشّتاء والصيف. فليعبدوا ربّ هذا البيت. الّذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾، لقد نصّت الآية الكريمة على الهدي والقلائد. أمّا الهدي فهو عبارةٌ عمّا أهدي إلى الحرم من النَّعَم ولم يُقَلَّد. وأمّا القلائد فهي عبارةٌ عمّا أهدي إلى الحرم من النَّعَم ووضعت في أعناقه القلائد.

---

(١) الخَلَى مقصور الرَّطْب من الحشيش الواحدة خلاة. وخَلَيْت الخَلى قطعته.

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٤٩).

(٣) انظر تفسير الطبري (٧/ ٥٠).

(٤) سورة قريش.

والقلائد جمع قلادة وهي عبارةٌ عمّا يُعَلَّق في عنق الهدي لِيُعْلَمَ أنَّه هدي. واللَّطيف في الأمر أنَّ القلائد تطلق على ما يعلّق في الأعناق وعلى الهدي ذاته. واللَّطيف في الأمر كذلك أنَّ الرَّجل كان إذا أراد البيت الحرام تقلّد هو الآخر قلادةً من شَعْر فأحمته ومنعته من النَّاس. وكان إذا نفر تقلّد قلادةً من الإذخر أو من لحاء السّمر[1]، فمنعته من النَّاس حتى يأتي أهله، حواجز أبقاها الله بين النَّاس في الجاهلية[2].

وهل النَّسيء، وهو تأخير بعض الأشهر الحرم، إلاَّ مظهرٌ غير سليم من مظاهر تقدير العرب للأشهر الحرم بوضع شهرٍ حلالٍ موضع شهرٍ حرام استعجالاً للغزو والسلب والأخذ بالثَّأر؟

إنَّ حرمة المكان وحرمة الزَّمان والأمن من الجوع، كلّ ذلك لتعلموا أيها النّاس أنَّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما في السماوات وما في الأرض، ولتعلموا أنَّ الله سبحانه وتعالى بكلّ شيءٍ عليم، ومن ذلك ما يقوم به أمركم وتصلح به معيشتكم فمكّن لكم حرماً آمناً وأشهراً حرماً. وما الّذي يترتّب على العلم؟ الشّكر لله تعالى بإفراده جلّ وعلا بالعبادة و الله سبحانه وتعالى هو الشّديد العقاب الغفور الرحيم، فعليكم اتّباع الرسول الّذي تقف مهمّته عند البلاغ. وإلى هذه المعاني أشارت:

---

(١) الإذخر: نباتٌ طيّب الرائحة. والسّمر بوزن رجل جمع السَّمُرة، بضمّ الميم، من شجر الطّلح.

(٢) انظر تفسير الطبري (٧/ ٥٠).

الآيتان رقم (٩٨ و ٩٩)

قال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

تأمر الآية الكريمة الأولى النّاس كلّ النّاس أن يعلموا أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الشّديد العقاب لمن عصاه، الغفور الرّحيم لمن تاب إليه جلّ وعلا توبةً نصوحاً. وتبيّن الآية الكريمة الأخرى أنَّ على الرسول محمّد ﷺ البلاغ وحده، ولله الأمر من قبل ومن بعد: ﴿من يشأِ الله يُضْلِلْه ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم﴾[1]، كما تبيَّن أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يُبْدي النّاس وما يكتمونه. وممّا يجب على النّاس أن يلتزموا في حقه بأحكام الله تعالى الخبيث والطيّب من الطعام وغير الطعام وإلى هذا المعنى أشارت:

الآية رقم (١٠٠)

قال تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

من البيِّن أنَّ الآية الكريمة تُصْلِحُ من اعوجاج بعض النّفوس غير السويّة وتعالج من أدواء بعض الفِطر الملتوية، التي تؤثر الخبيث على الطيّب. والحقيقة أنَّ تعبير الآية الكريمة عن معانيها القريبة ومراميها البعيدة غايةٌ في الإعجاز والإيجاز. من المعروف أنَّ الطيّب غير الخبيث وأنَّ الحلال غير الحرام وأنَّ الطيّب حلالٌ والخبيث حرام. فكيف عالجت الآية الكريمة أمراض النفوس المريضة؟ بما أنَّ هذه النّفوس غير السوية تعكس

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٩.

القضيَّة فتجعل الحقّ باطلاً والباطل حقّاً بوضع الخبيث موضع الطيّب وبالتّالي تؤثر الخبيث على الطيّب، فإنَّ أوّل ما تقوم به الآية الكريمة إعادة الأمور إلى نصابها، وذلك بنفي أن يستوي الخبيث والطيّب فضلاً عن أن يفضل الخبيث الطيّب كما يرى أولو الأهواء.

ولمّا كان كلٌّ من الشّيطان الرَّجيم والنَّفس الأمارة بالسوء يزيّن الخبيث ويظهره على غير حقيقته ممّا ينجم عنه منظر للخبيث خلاَّب، ومظهرٌ للباطل غلاَّب، خاصَّةً في الجانب المقوّي للمظهر والمنظر أعني جانب الكثرة، كالكثير من المال الحرام في مقابل القليل الحلال فقد جاء علاجاً لكلّ ذلك قوله عزّ من قائل: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيّب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾.

ولمّا كان الإعجاب متعلّقاً بالنّفوس التي يملكها ويستحوذ عليها الشّيء المعجب به، وكان لا بدّ للعقل أن يقوم بدوره كي يكون الإنسان متّزناً ومنسجماً مع كلّ ما يحيط به كان ثمّة حثٌّ على استعمال العقول استعمالاً صحيحاً. ولمّا كان التّوازن بين النّفس والعقل، القلب واللّبّ، العاطفة والفكر، بحاجةٍ إلى الهدي السّماوي الّذي يرشده، والنّور الرباني الّذي يسدّده، كان ثمّة أمرٌ بتقوى الله تعالى في السرّ والعلن. ولمّا كان التوفيق الّذي هو ثمرة تعاون كلّ هذه المقوّمات رهن مشيئة الفعّال لما يريد جلّ جلاله كان ثمّة إيماءٌ إلى أنَّ الفلاح رهن هذه المشيئة. لقد تحقّق كلّ ذلك في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلّكم تفلحون﴾.

وإذا كان هذا الفريق الّذي يؤثر الخبيث على الطيّب معتدياً، وكان ثمّة نهيٌ عن الاعتداء بإحلال ما حرَّم الله تعالى. وإذا كان ثمّة فريقٌ آخر

مبالغٌ في الاحتياط للدَّرجة التي يُخْشى معها أن يتورّط في نوعٍ آخر من الاعتداء بتحريم ما أحلّ الله تعالى، لكلّ ذلك كان ثمة إرشادٌ لهذا الفريق الآخر وذلك في الآيتين الكريمتين التّاليتين، وهاتان هما:

الآيتان رقم (١٠١ و ١٠٢)

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

سبب النّزول:

قال ابن جرير[1]، حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد عن قتادة في قوله: ﴿يا أيُّها الّذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم...﴾ الآية. قال: فحدّثنا أنَّ أنس بن مالك حدَّثه أنَّ رسول الله ﷺ سألوه حتّى أحفَوْه بالمسألة فخرج عليهم ذات يومٍ فصعد المنبر فقال: لا تسألوني اليوم عن شيءٍ إلاَّ بيَّنته لكم. فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمرٍ قد حضر. فجعلت لا ألتفت يميناً ولا شمالاً إلاَّ وجدت كَلاًّ لافّاً رأسه في ثوبه يبكي. فأنشأ رجلٌ كان يلاحَى[2]، فيُدْعَى إلى غير أبيه، فقال: يا نبيّ الله، من أبي؟ قال: أبوك حذافة. قال: ثمّ قام عمر أو قال: فأنشأ عمر، فقال: رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّدٍ رسولاً. عائذاً بالله أو قال: أعوذ بالله من شرّ الفتن. قال: وقال رسول الله ﷺ: لم أر في الخير والشّرّ كاليوم قطّ. صوّرت لي الجنّة والنّار حتى رأيتهما دون

(١) تفسير الطبري (٧/ ٥٢).

(٢) يلاحَى: يُلام.

الحائط. أخرجاه من طريق سعيد[1].

وعن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمارّ وجهه حتّى جلس على المنبر فقام إليه رجلٌ فقال: أين أنا؟ قال: في النّار. فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: أبوك حذافة. فقام عمر بن الخطاب، فقال: رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد ﷺ نبيّاً وبالقرآن إماماً. إنّا يا رسول الله حديثو عهدٍ بجاهليّة وشرك والله أعلم من آباؤنا. قال: فسكن غضبه ونزلت هذه الآية: ﴿يا أيُّها الّذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم...﴾ الآية. إسناده جيد[2].

وروى الإمام أحمد والتّرمذي وابن ماجه أنَّ هذه الآية لما نزلت: ولله على النّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً. قالوا: يا رسول الله: أفي كلّ عام؟ فسكت. قال: ثمَّ قالوا: أفي كلّ عام؟ فقال: لا. ولو قلت نعم لوجبت. ولو وجبت لما استطعتم. فأنزل الله: ﴿يا أيُّها الّذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم...﴾ الآية[3].

وفي الصَّحيح عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: ذروني ما تركتكم فإنَّما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. وفي الحديث الصَّحيح أيضاً: إنَّ الله تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها. وحدّ حدوداً فلا تعتدوها. وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها. وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٥)؛ وانظر أسباب النزول (٢٤٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٦).

تنادي الآية الكريمة الأولى الّذين آمنوا وتنهاهم أن يسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لهم تسؤهم بسبب صعوبتها وما يقترن بها من مشقّات وعجزهم عن الوفاء بالتزاماتها. ثمّ إن الله سبحانه وتعالى ما جعل علينا نحن المسلمين في الدّين من حرج بل أراد عزّ وجلّ بنا اليُسْر لا العُسْر فلماذا يُلْزم السائلون أنفسهم وغيرهم بالعسر لا اليسر؟ وتبيِّن الآية الكريمة أنَّ هذه الأشياء من حقّهم أن يسألوا المصطفى ﷺ عنها حينما ينزل بها القرآن الكريم ويكون منه ﷺ التّبيين لهم مصداقاً لقوله عزّ من قائل[1]: ﴿وأنزلنا إليك الذّكر لتبيِّن للنّاس ما نُزِّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون﴾.

وبشأن الأسئلة السابقة التي ألقاها الصحابة على المصطفى ﷺ يجيء القول: ﴿عفا الله عنها﴾ والعفو ترك المؤاخذة.

والمعروف أنَّ الصحابة قد امتثلوا لهذه التّوجيهات الربّانيّة والنّصائح النبويّة فما أقلّ أسئلتهم المصطفى ﷺ. والمعروف أنَّ هذه الأسئلة القليلة التي سألوها جاءت الأجوبة عليها في القرآن الكريم مشيرةً إليها بالقول: ﴿يسألونك﴾.

ويجمع التّذييل: ﴿والله غفورٌ حليم﴾ بين المغفرة والحلم. والمعروف أنَّ المغفرة عفوٌ وزيادة. وهذه الزّيادة تتمثّل في ستر الذّنب وعدم فضح صاحبه على رؤوس الأشهاد. وبذلك نكون بصدد تدرّجٍ من العفو إلى المغفرة، وبصدد مغفرةٍ وحلم. ويصحّ أن نفهم المغفرة بأنّها امتدادٌ لعفو الله تعالى عن السّائلين من قبل. ويصحّ أن نفهم الحِلْم بأنّه متعلّقٌ بالسّائلين من قبل وبالسّائلين القليلين من بعد. إنَّ حلم الله تعالى

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.

شمل الفريقين لأنّه جلّ وعلا لم يعاجلهم بالعقوبة. وإنَّ الآية الكريمة التالية تعمّق هذه المعاني.

قال تعالى: ﴿قد سألها قومٌ من قبلكم ثمَّ أصبحوا بها كافرين﴾، إنَّ أتباع النَّبيّين السابقين أكثروا على أنبيائهم الأسئلة، وألحفوا في المسألة، وشدّدوا على أنفسهم فشدّد الله تعالى عليهم. وما لبث هؤلاء السَّائلون أن عجزوا عن حمل الأمانة، ومن باب الأولى ذرّيتهم، فكان منهم كفرٌ لتلك التّكاليف، وجحدٌ لتلك الواجبات، وذلك ذنبٌ كبير، وشرٌّ مستطير. إنَّ لسان حال الآية الكريمة يقوّي لسان مقال الآية الكريمة السابقة.

وممّا له علاقة بالاعتداء على الله تعالى وذلك بتحريم ما أحلّ جلّ وعلا ما أشارت:

الآيتان رقم (١٠٣، ١٠٤)

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنَّ الله سبحانه وتعالى ما جعل وما شرع ﴿من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ﴾، وهذه أسماءٌ لأنعام حرَّم المشركون الانتفاع بها زاعمين أنَّ الله سبحانه وتعالى أمر بهذا، وقد كذبوا. روى البخاريّ ومسلم والنَّسائي عن سعيد بن المسيَّب، قال: البحيرة التي يُمْنَع درّها للطَّواغيت فلا يحلبها أحدٌ من النّاس. والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء. والوصيلة النَّاقة البكر تبكر في أوّل نتاج

الإبل. ثمَّ تثنّى بعد بأنثى. وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. والحام فحل الإبل يضرب الضِّراب المعدود. فإذا قضى ضرابه ودّعوه للطَّواغيت وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء وسمّوه الحامي[1]، والبحيرة: الفعيلة من قول القائل بحرت أذن هذه النَّاقة إذا شقّها أبحرها بحراً والنَّاقة مبحورة. ثمّ تصرف المفعولة إلى فعيلة فيقال: هي بحيرة[2]، والأصل الّذي تدور حوله مادّة: «بحر» الاتّساع والانبساط[3]، ومنه بحرت البعير شققت أذنه شقّاً واسعاً، ومنه سمّيت البَحِيرة. قال تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾. وذلك ما كانوا يجعلونه بالنَّاقة إذا ولدت عشرة أبطن شقّوا أذنها فسيّبوها فلا تُرْكَب ولا يُحْمَل عليها[4]، فنهاهم الله تعالى عن ذلك[5]، وبيَّنت الآية الكريمة أنَّ الله سبحانه وتعالى ما جعل شيئاً من ذلك ولا أذن به ولكنَّ الّذين كفروا يفترون على الله سبحانه وتعالى الكذب كما أنَّ أكثرهم لا يعقلون ولا يستعملون نعمة العقل استعمالاً صحيحاً وإلاَّ لأدركوا أنَّ هذه من السخافات.

والعجيب في أمر هؤلاء المشركين أنَّهم ــ كما جاء في الآية الكريمة الأخرى ــ إذا قيل لهم في طريقةٍ كريمةٍ تعالَوْا إلى ما أنزل الله تعالى من

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٥٦).

(٣) مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «بحر» (٣٧)؛ ومعجم مقاييس اللغة «بحر» (١/ ٢٠١).

(٤) مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «بحر» (٣٧)؛ ومعجم مقاييس اللغة «بحر» (١/ ٢٠٢).

(٥) معجم مقاييس اللغة «بحر» (١/ ٢٠٣).

قرآنٍ كريم، وهلمّوا إلى الرسول العظيم كي تقفوا على الحقّ فتتبعوه، وعلى الباطل فتجتنبوه كان جوابهم امتداداً لتعطيلهم عقولهم. إنّهم يقولون حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا: ﴿وإنّا على آثارهم مهتدون﴾[1]، وكافينا ما يقوم به هؤلاء الآباء: ﴿وإنّا على آثارهم مقتدون﴾[2].

وفي أسلوب الاستفهام الإنكاريّ تسأل الآية الكريمة القوم: ﴿أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾، أحسبهم وكافيهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً صحيحاً ولا يهتدون سبيلاً مليحاً!

ولمّا كان المؤمنون يمثّلون الثّمرة اليانعة النّاضجة لمنهج التّربية القرآنية، فإنَّ الآية الكريمة الأخيرة في القسم تخصّهم بالذّكر، فإلى:

الآية رقم (١٠٥)

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾.

تنادي الآية الكريمة الّذين آمنوا باعتبارهم المستفيدين يقيناً من تعاليم القرآن الكريم السّامية وتوجيهاته النّبيلة وتأمرهم بالقول: ﴿عليكم أنفسكم﴾، والمعنى: احفظوا أنفسكم، وقوموا بصلاحها، واعملوا على تزكيتها.

ولمّا كان كلّ إنسانٍ مسؤولاً وحده أمام الله تعالى عمّا كسبت يداه من خيرٍ أو شرٍّ جاء القول المعمّق لهذا المعنى: ﴿لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم﴾.

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٢.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

ولمّا كان حساب الخلائق في يوم القيامة الّذي يعرف فيه كلّ إنسان حقيقة الطريق الّذي سلكه، أهو طريق الهدى أم طريق الضلالة، ويعلم فيه كلّ إنسان طبيعة العمل الّذي قام به في الحياة الأولى من خيرٍ يثاب عليه أو شرٍّ يعاقب عليه جاء القول في الآية الكريمة: ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً فينبّئكم بما كنتم تعملون﴾.

• • •

- ١٦ -

تعاليم حين الوصيّة

الآيات (١٠٦ ~ ١٠٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

سورة المائدة من أواخر سور القرآن الكريم نزولاً وأحكامها في رأي فريقٍ من العلماء غير قابلةٍ للنّسخ لأجل ذلك. ومن الأحكام التي وردت في السورة الكريمة ما يتعلّق بالمسلم حينما تحضره أسباب الموت في غير ديار الإسلام. إنّه في حال عدم وجود وصيّين من المسلمين يكون التّحول إلى وصيّين من غير المسلمين. فإذا كان من ورثة الميّت ارتيابٌ فيهما وشكٌّ في أمانتهما يحضرهما وليّ الأمر بعد الصّلاة فيقسمان بالله العليّ العظيم أنّهما لا يشتريان باليمين ثمناً ولو كان الّذي يحلفان من أجله ذا قرابةٍ منهما ولا يكتمان شهادة الله تعالى وإلاّ كانا آثمين. وإنّما كان الوقت بعد الصّلاة التي حدّدها بعضهم بصلاة العصر لأنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فكيف إذا اقترن بالصّلاة يمينٌ بالله تعالى العظيم على أمانتهما وأدائهما: الشّهادة على وجهها. وبشأن غير المسلمين يظنّ أنّ صلاتهما لها الدور الّذي لها لدى المسلمين.

أما وقد أقسم الوصيّان بعد الصّلاة على عدم الخيانة وعلى أداء الشّهادة فالمأمول أنّهما صادقان فيما أقسما عليه وشهدا به فإن عُثِر من قبيل المصادفة على أنّهما ارتكبا إثماً فيقوم حينئذٍ مقامهما شخصان آخران من بين الّذين حلّ بهم ظلم الوصيّين. وهذان الشّخصان يكونان من أقرب ورثة الميّت إليه فيقسمان بالله العظيم لشهادتنا بخيانة الوصيّين أحقّ من شهادتهما وما اعتدينا عليهما بحلفنا إنّا إذاً لمن الظّالمين. إنّ ذلك الحكم أدنى أن يأتي الأوصياء بالشّهادة على وجهها الصّحيح أو يخافوا أن تردّ إلى الورثة وتُحوَّل أيمان بعد أيمان الأوصياء التي رُدّت. والآية الكريمة الأخيرة تأمر بتقوى الله تعالى وبالسّماع سماع قبول وتقرّر أنّ الله تعالى لا يهدي القوم الفاسقين.

الآية رقم (١٠٦)

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

سبب النّزول:

إنَّ خير ما يعين بإذن الله تعالى على فهم الآية الكريمة والآيتين الكريمتين بعد ذلك معرفة سبب النّزول.

يقول القرطبيّ[1]: ﴿ولا أعلم خلافاً أنَّ هذه الآيات نزلت بسبب تميم الدّاريّ وعديّ بن بدّاء. روى البخاريّ والدَّارَقطنيّ وغيرهما عن ابن عباس قال: كان تميم الدّاري وعديّ بن بدّاء يختلفان إلى مكّة. فخرج معهما فتىً من بني سهم فتوفّي بأرضٍ ليس بها مسلم، فأوصى إليهما، فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاماً[2]، من فضّة مخوّصاً بالذّهب[3]، فاستحلفهما رسول الله ﷺ: ما كتمتما ولا اطّلعتما. ثمّ وُجِد الجام بمكّة

---

(١) تفسير القرطبي (٢٣٤٣).

(٢) الجام: إناءٌ من فضّة.

(٣) مخوّص بالذّهب: عليه صفائح الذّهب مثل خُوص النّخل. والخوص الوَرَق.

فقالوا: اشتريناه من عديّ وتميم. فجاء رجلان من ورثة السَّهميّ فحلفا أنَّ هذا الجام للسَّهميّ، ولشهادتنا أحقّ من شهادتهما وما اعتدينا. قال: فأخذوا الجام. وفيهم نزلت هذه الآية. لفظ الدّارقطنيّ». وكان تميم الدّاري وعديّ بن بداء نصرانيّين يختلفان إلى الشَّام قبل الإسلام[1].

وعن عبد الله بن عبّاس، قال: قال زيد بن أسلم في هذه الآية: شهادة بينكم، الآية كلّها. قال: كان ذلك في رجلٍ توفّي وليس عنده أحدٌ من أهل الإسلام، وذلك في أوّل الإسلام والأرض حربٌ والنَّاس كفّار. إلاَّ أنَّ رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة، وكان النَّاس يتوارثون بالوصيَّة. ثمّ نسخت الوصيَّة وفرضت الفرائض وعمل المسلمون بها[2].

في ضوء ما سبق يصحّ أن يكون معنى الآية الكريمة ــ والله تعالى أعلم ــ على النّحو الآتي:

يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبيّاً، وبالقرآن الكريم دستوراً، ليشهد بينكم[3] إذا حضر أحدَكم أسبابُ الموت ومقدّماتُه حين الوصيّة شخصان اثنان ذوا عدلٍ منكم وأمانةٍ وتقوى، أو ليشهد شخصان من غير دينكم وملّتكم إن أنتم ضربتم في الأرض وسافرتم ذاهبين وراجعين في الأرض[4]، فأصابتكم مصيبة الموت في غير ديار المسلمين ولم تخطئكم المنيّة بل أَصْمَتْكُمْ وليس حولكم إخوةٌ لكم في الإسلام.

---

(١) تفسير القرطبي (٢٣٤٣).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٦٨).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٦٥).

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٧٠).

إنّكم في حال ارتيابكم في أمانة الشّخصين وشكّ الورثة في استقامتهما ونزاهتهما وصدقهما تحبسونهما وتحضرونهما من بعد الصّلاة، وقد حدَّدها بعضهم بصلاة العصر لما جاء في الصّحيح: من حلف على يمينٍ كاذبةٍ بعد العصر لقي الله وهو عليه غضبان[1]، فيقسمان بالله العظيم لا نشتري بحلفنا ثمناً قليلاً، ولا نستعيض[2] بقَسَمِنا مطلباً رخيصاً ولو كان الّذي نقسم له ذا قرابةٍ منّا، ولا نكتم شهادة الله تعالى عندنا، بل ننقل الوصيّة ونبلّغها كما حُمِّلناها، ونؤدّي المال الّذي اؤتمنّا عليه إلى أصحابه كاملاً غير منقوص. إنّا لو فعلنا شيئاً غير الّذي أقسمنا عليه لمن الآثمين الّذين يتّخذون آيات الله تعالى هزواً.

وهل شهادة غير المسلمين التي نصّت عليها الآية الكريمة محكمةٌ أو منسوخةٌ؟ من العلماء من ذهب إلى أنَّ الآية الكريمة محكمة، فعلى هذا تكون شهادة أهل الكتاب على المسلمين جائزةً في السّفر إذا كانت وصيَّة[3]، ومن الّذين ذهبوا إلى أنَّ الآية الكريمة محكمة أبو موسى الأشعريّ وسعيد بن المسيّب ويحيى بن يَعْمَر وسعيد بن جبير وأبو مِجْلز وإبراهيم وشريح وعبيدة السَّلمانيّ وابن سيرين ومجاهد وقتادة والسّديّ وابن عبّاس[4].

ومن العلماء من ذهب إلى أنَّ قوله سبحانه: ﴿أو آخران من غيركم﴾ منسوخ. هذا قول زيد بن أسلم والنَّخعيّ ومالك والشّافعيّ وأبي حنيفة

---

(١) تفسير القرطبي (٢٣٥٠).

(٢) تفسير القرطبي (٢٣٥٣).

(٣) تفسير القرطبي (٢٣٤٦).

(٤) تفسير القرطبي (٢٣٤٦).

وغيرهم من الفقهاء[1].

وابن كثير الّذي يرى أنَّ الآية الكريمة محكمة يقول[2]: «قد ذكروا أنَّ إسلام تميم بن أوس الدّاريّ رضي الله عنه كان سنة تسعٍ من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخّراً يحتاج مدّعي نسخة إلى دليلٍ فاصلٍ في هذا المقام. والله أعلم». والقرطبيّ الّذي يرى الرّأي ذاته مستهشداً بثلاثةٍ من الصَّحابة رضوان الله تعالى عليهم على عدم النّسخ يقول[3]: «وقد قال بالأوّل ثلاثةٌ من الصَّحابة وليس ذلك في غيره. ومخالفة الصَّحابة إلى غيرهم ينفر عنه أهل العلم. ويقوّي هذا أنَّ سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً حتى قال ابن عبّاس والحسن وغيرهما: إنَّه لا منسوخ فيها».

ونحن حينما نذهب إلى أنَّ الآية الكريمة محكمةٌ غير منسوخة نكون بصدد مظهرٍ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم الصَّالح لكلّ زمانٍ ومكان. وتفسير ذلك أنَّ الّذين قالوا بالنّسخ ذهبوا إلى أنَّ شهادة غير المسلمين في الوصيَّة على المسلمين كانت مرتبطةً بفجرِ الإسلام حينما كان الإسلام غريباً. وحينما انتشر الإسلام وكثر المسلمون زال السَّبب الّذي من أجله قُبِلَتْ شهادة غير المسلم في الوصيَّة. والحقيقة أنَّ دين الإسلام الّذي رضيه الله تعالى لعباده ووعد جلّ وعلا ووعده الحقّ بأن يظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون يغزو بفضل الله تعالى الوهاد والنّجاد ويبلغ حيث بلغ الليل والنّهار. وما أكثر المسلمين الّذين تحضرهم أسباب الموت في تلك الأصقاع النّائية وليس معهم مسلمون ينقلون وصاياهم. وما أشد إيلام

---

(١) تفسير القرطبي (٢٣٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/١١٣).

(٣) تفسير القرطبي (٢٣٤٧).

الأخبار التي رواها لي في أستراليا وفي غير أستراليا المسؤولون في الجمعيّات الإسلامية حينما يتّصل بهم غير مسلمين ويخبرونهم بأنَّ شخصاً ينتمي إلى ملّتكم قد مات فتعالوا خذوه واعملوا معه، بناءً على وصيته، ما يقتضيه دين الإسلام الّذي ينتمي إليه.

إنَّ هذه الحقائق قوّةٌ للرّأي الّذي يذهب إلى أنَّ الآية الكريمة محكمةٌ غير منسوخة. والله أعلم.

وما العمل حينما يتبيَّن أنَّ الشّاهدين حاملي الوصيّة قد أثما وكذبا وخانا الأمانة؟ الجواب في:

الآية رقم (١٠٧)

قال تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

أشارت الآية الكريمة السابقة إلى حبس المرتاب في أمرهما بشأن الوصية من أجل أن يُقْسِما بالله العظيم بعد الصَّلاة بأنَّهما لا يشتريان بيمينهما أيَّ نفع عاجل. ولمّا كانت الصَّلاة تنهي المسلم عن الفحشاء والمنكر، وينبغي أن يكون لصلاة غير المسلم الأثر نفسه، لذا كان كلّ من اليمين والصَّلاة مظنَّة أن يحمل الوصيّين على صدق القول والعمل. أما وقد غلب على الظنّ صدق الوصيّين في شهادتهما فكيف يمكن اكتشاف كذبهما؟ بمحض الصّدفة التي أشارت إليها جملة: «عُثِر» في الآية الكريمة التي نحن بصددها. واللّطيف في الأمر أنَّ هذه الجملة تستعمل في القرآن الكريم في حقّ من يطّلع على أمرٍ من غير طلبه. قال تعالى: ﴿فإن عُثِر على أنّهما

استحقا إثماً﴾، يقال: عثرت على كذا. قال: وكذلك أعثرنا عليهم، أي وقّفناهم عليهم من غير أن طَلَبوا[1].

ومعنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، فإن عُثِرَ من قبيل الصُّدفة والمصادفة على أنَّ الوصيّين قد استحقّا إثماً، وارتكبا ذنباً، بأن خانا الأمانة، فلم يبلّغا الوصيَّة على حقيقتها وكذبا في الشّهادة، فيقوم حينئذٍ مقامهما من ورثة الميّت الأوليان إلى الميّت والأقربان إليه من بين قرابته الّذين وقع عليهم هذا الإثم، ومن بين ورثته الّذين حلّ بهم هذا الظلم، فيقسمان بالله العظيم، لشهادتنا بخيانة الوصيّين الأمانة، أحقّ من شهادتهما بشأن وصيّة متوفّانا وماله، وما اعتدينا عليهما بما نقول، إنّا إذاً لمن الظّالمين إن قلنا غير ما نعتقد أنَّه الحقّ وتجاوزنا الحقّ في اليمين.

وتبيِّن الآية الكريمة الثالثة والأخيرة في القسم الحكمة من هذه الأعمال والاحتياطات كما تبيّن المطلوب من عباد الله تعالى، فإلى:

الآية رقم (١٠٨)

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

تقرّر الآية الكريمة أن ذلك الحكم من ردّ اليمين إلى الورثة وأقرباء الميِّت أدنى أن يأتي الأوصياء بالشَّهادة على وجهها الصَّحيح وأقرب أن يخافوا أن تُرَدَّ أيمانٌ على الورثة وتحوّل إلى أقرباء الميِّت بعد أيمان الأوصياء التي ردّت وبذلك يثبت للورثة وأقرباء الميِّت ما ادَّعوا على الأوصياء.

---

(١) مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «عثر» (٣٢٢).

ويلفت النَّظر مجيء جملة: «يأتوا بالشّهادة» تأكيداً للقاعدة التي تقول: إنَّ جملة: «أتى» تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على البعد الزَّمانيّ والمكانيّ والنَّفسيّ، وإن جملة: «جاء» تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على القرب الزَّماني والمكاني والنَّفسي. وإنَّ الجملة في القول: ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشّهادة على وجهها﴾، تشير إلى البعد النَّفسي أو المعنويّ، بمعنى اجتهاد الأوصياء في استجماع كلّ قواهم الذَّاتيّة من أجل إظهار كلٍّ من الوصيَّة والشَّهادة في صورتها الحقيقية.

وتتحول الآية الكريمة إلى الأمر بالتَّحلي بملاك الأمر وعموده وهو تقوى الله تعالى، وبالتَّنبيه إلى الطَّريق المفضي إلى هذه الغاية الحميدة وهو سماع أحسن القول سماع قبول. قال تعالى: ﴿واتَّقوا الله واسمعوا﴾.

ولمّا كان النَّاس فريقين، مؤمنين مطيعين متَّقين، وكافرين عاصين فاسقين، ولمّا كان المتّقون قد نالوا حظّهم في القول: ﴿واتّقوا الله واسمعوا﴾، فقد نال الفريق الآخر المقابل حظّه في آخر جزئيّات الآية الكريمة: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾، ولمّا كان ربّ العزّة لم يهد القوم الفاسقين، بل زادهم خروجاً عن الصراط المستقيم على خروج، فذلك معناه أنَّ ربّ العزّة هدى المؤمنين إلى الصراط المستقيم، وزادهم هدىً وآتاهم تقواهم مصداقاً لقول الحقّ جلّ وعلا[1]: ﴿والّذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا وإنَّ الله لمع المحسنين﴾، وقوله تعالى[2]: ﴿والّذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم﴾.

● ● ●

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) سورة محمد: الآية ١٧.

- ١٧ -

من نعم الله تعالى على عيسى عليه السلام ،
وثواب الصادقين وعقاب الكاذبين

الآيات (١٠٩ - ١٢٠)

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا
بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾
وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ۖ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ
قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ
ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ
صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى
مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ
ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا
يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى
نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾
إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ
ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ .

أمرت آخر آيات القسم السابق النّاس بأن يتّقوا الله تعالى، وذلك من أجل يوم القيامة المجموع له النّاس المشهود. وتبدأ أولى آيات هذا القسم بذكر هذا اليوم الّذي يجمع جلّ وعلا فيه الرّسل فيسألهم وهو العليم بكلّ شيء: ﴿ماذا أُجِبْتم﴾ ويكون جواب الرّسل منسجماً مع الخلق العظيم الّذي فطرهم الله تعالى عليه والأدب الجم: ﴿قالوا لا علم لنا إنّك أنت علّام الغيوب﴾، ومن بين الرّسل الّذين يذكّرهم الله تعالى يوم القيامة بنعمه العظيمة عليهم ويسألهم عيسى عليه السّلام. إنّ لله سبحانه وتعالى يقول لعيسى عليه السّلام اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك الطاهرة مريم البتول. وإنّ الجمع بين عيسى عليه السّلام وأمّه مرشّحٌ لحديث السّورة بعد ذلك عن الغلاة فيهما من أتباع عيسى عليه السّلام. إنّ من نعم الله تعالى على عيسى عليه السّلام أنّه خُلِق من غير أب. وإنّ من نعم الله تعالى على مريم البتول أنّ براءتها ثبتت بكلام طفلها وهو في المهد. وقد راعنا بشأن ترتيب النّعم أنّها بدأت بالنّعم التي هي محض فضل كالتّأييد بروح القدس والكلام في المهد. ثمّ كان التّحوّل إلى النّعم التي جمعت بين محض الفضل كإيتاء الإنجيل والحكمة، وبين الكسب كعلم التّوراة والخطّ. وبعد الحديث عن النّعم اللازمة كان التّحوّل إلى النّعم المتعدّية. وقد راعنا مجيء القول «بإذني» عقب كلّ آيةٍ مِنْ خَلْق الطّين كهيئة الطّير، والنّفخ فيه كي يكون طيراً، وإبراء الأكمه والأبرص، وإخراج الموتى من قبورهم بندائهم. كما راعنا أنّ عمليّة الخلق تتعلّق بخلق الطّين كهيئة الطّير والنّفخ فيه وبإخراج الموتى، ولهذا صدّرت كلّ آية بالقول: «وإذ» كما راعنا أنّ آية إبراء الأكمه والأبرص لمّا كانت مغايرة لما سبقها ولحقها من آيات لم يصدّر الحديث عنها بالقول: «وإذ» بل جاء القول بدونها: ﴿وتبرىء الأكمه والأبرص

بإذني﴾، وهكذا تتبيَّن روعة كلٌّ من الذّكر والحذف. ومن هذه النّعم كفّ الله تعالى شرّ بني إسرائيل الّذين قالوا عن آيات عيسى عليه السَّلام إنَّها سحرٌ وهمّوا بقتله. ومن هذه النعم كذلك تأييده عليه السَّلام بالحواريّين الّذين أوحى الله تعالى إليهم أن يؤمنوا به جلّ وعلا وبعيسى عليه السَّلام فاستجابوا. وقد طلب الحواريّون من عيسى عليه السَّلام مائدةً من السماء بسبب فقرهم وأصرّوا على الطَّلب وبيّنوا الحكمة منه. ومن أجل ذكرالمائدة في هذا القسم من السورة سمّيت السورة الكريمة بها. لقد سأل عيسى عليه السَّلام ربّه جلّ وعلا أن ينزل عليهم مائدةً من السَّماء فنزلت. وقد تبيَّن في السياق سنّة الله تعالى في الأمم السابقة بأنَّ من كفر بعد تحقّق الآية التي طلب فإنَّه سيعذّب عذاباً أليماً.

ثمّ تحول الحديث إلى عيسى عليه السَّلام وأمّه البتول وغلوّ أتباع عيسى عليه السَّلام فيهما. إنَّ ربّ العزّة يسأل عيسى عليه السَّلام يوم القيامة على رؤوس الأشهاد: ﴿أأنت قلت للنَّاس اتَّخذوني وأمّي إلٰهين من دون الله﴾، ويكون التَّنزيه لله تعالى من عيسى عليه السَّلام في القول: ﴿سبحانك﴾وتقرير مقام الألوهيَّة الرَّفيع ومكان العبوديّة الّذي ما يكون لعبدٍ من عباد الله تعالى أن يتخطّاه فكيف بالمصطفين الأخيار، وتبيين دعوة التَّوحيد التي دعا عيسى عليه السَّلام قومه إليها، وشهادته عليه السَّلام عليهم في حياته وقبل رفعه. إنَّ كلّ ما نوى عيسى عليه السَّلام وقال وفعل، وإنَّ كلّ ما نوى الآخرون وقالوا وفعلوا قد أحاط الله تعالى به علماً وهو جلّ وعلا الرَّقيب الشَّهيد. ويوكل عيسى عليه السَّلام أمر قومه إلى الله تعالى العزيز الحكيم فإن شاء عذَّبهم جلّ وعلا بعدله وإن شاء غفر لهم بفضله. ويكون الجواب من الله تعالى بأنَّ الصادقين ينفعهم يوم القيامة صدقهم ولهم

جنّات النَّعيمِ ورضي الله عنهم بأعمالهم الصَّالحة ورضوا عنه بثوابه إيَّاهم. إنَّ ذلك هو الفوز العظيم. وتختم السورة الكريمة بتقرير ملكوت الله تعالى العظيم وقدرته جلّ وعلا المطلقة.

• • •

الآية رقم (١٠٩)

قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

تقرّر الآية الكريمة أنَّ الله سبحانه وتعالى سوف يجمع يوم القيامة الرّسل فيقول لهؤلاء الرّسل الكرام سائلاً جلّ وعلا هؤلاء الرّسل على سبيل التّبكيت للمعرضين عن دعوة الحقّ الخارجين على الصّراط المستقيم: «ماذا أُجِبْتُم»؟ ولمَّا كان الرّسل الكرام لا يعلمون إلاَّ ما علَّمهم الله تعالى وكان ربّ العزّة قد فطرهم على الخلق العظيم والأدب الجمّ، فإنَّ جوابهم كان تعبيراً عن كلّ تلك النّعوت الحسنة: ﴿قالوا لا علم لنا إنَّك أنت علاَّم الغيوب﴾، إنَّ رسل الله تعالى لا يعلمون إلاَّ ما علَّمهم الله تعالى ولا يعلمون وراء ذلك إلاَّ الظاهر. إنَّهم لا يعلمون حقيقة من أظهر الإيمان، ولا يعلمون شيئاً غاب عنهم في حياتهم إنّ لم يأتهم العلم بذلك، ومن باب الأولى هم لا يعلمون شيئاً استجدّ بعد مماتهم.

وفي مقابل نفي هؤلاء الرّسل الكرام أيّ قدرٍ من العلم هم يثبتون للذّات العليَّة كلّ علم. ويلفت النَّظر في القول: ﴿إنَّك أنت علاَّم الغيوب﴾، مجيء توكيدين: «إنك أنت» ومجيء علاَّم في صيغة المبالغة ومجيء الغيوب في صيغة الجمع. إنَّ الله سبحانه وتعالى يعلم كلّ غيب

ومن باب الأولى أن يحيط جلّ وعلا علماً بكلّ شهادة. ويلاحظ أنَّ التعبير ذاته سوف يتكرّر في هذا القسم من السّورة.

ولمّا كان النّصارى أتباع عيسى عليه السّلام قد ارتكبوا في مجموعهم، بعد رفعه عليه الصّلاة والسّلام إلى السّماء، الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك مع الله تعالى سواه، وكان عيسى عليه السّلام واحداً من أولئك الرّسل الكرام الّذين سوف يسألهم الحقّ جلّ وعلا يوم القيامة، فإنَّ السياق يتحدَّث في الآيات الكريمات حتى نهاية السورة الكريمة تقريباً في شأن عيسى عليه السّلام. والآن مع:

الآية رقم (١١٠)

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

وإنَّ دراستنا المتأمّلة للآية الكريمة سوف تعتمد خطوتين اثنتين الأولى تبيين معنى الآية الكريمة والأخرى تبيين بعض مظاهر إعجازها في ترتيب حبّات المعاني:

وبشأن الخطوة الأولى تبيّن الآية الكريمة في صيغة الزّمن الماضي دليلاً على حصول الحدث مستقبلاً على جهة التأكيد: ﴿إذ قال الله﴾، تبيّن الآية الكريمة أنَّ الله سبحانه وتعالى علاّم الغيوب سوف يقول لعيسى عليه

السَّلام في يوم القيامة اليوم المجموع له النَّاس المشهود: اذكر نعمتي عليك إذ خلقتك من أنثى ولا ذكر وعلى والدتك التي اصطفيتها على نساء العالمين بأن ولدتك على هذه الكيفيّة وكان كلامك في المهد شاهداً على عفّتها وبراءتها ممّا ألصقه بها الظَّالمون. اذكر يا عيسى نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك وقويتك بروح القدس جبريل عليه السَّلام تكلّم النَّاس في المهد وكهلاً. أمّا الكلام في المهد فهو على النَّحو الّذي نصَّت عليه سورة مريم. قال تعالى[1]: ﴿فأشارت إليه، قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيّا. قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّا. وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصَّلاة والزَّكاة ما دمت حياً. وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيّاً. والسَّلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا﴾.

وأمّا الكلام في الكهولة فإنَّه الدعوة إلى الله تعالى. ومن البيِّن أنَّ الكلامين مختلفان وفي فترتين مختلفتين وإنَّما جمع بينهما لأنَّهما من جنسٍ واحد قال تعالى: ﴿إذ أيّدتك بروح القدس تكلّم النَّاس في المهد وكهلاً﴾.

وبعد حديث الآية الكريمة عن النّعم التي هي محض فضلٍ من الله تعالى كنعمة النّبوة والكلام في المهد كان ثمَّة تحوّلٌ إلى نوعٍ من النّعم يجمع بينها أنَّها من جهةٍ محض فضلٍ من الله تعالى وذلك على غرار النّعم السابقة مثل الإنجيل الّذي آتاه الله تعالى إيّاه ونعمة الحكمة بمعنى الفهم السليم والتّفسير الصَّحيح، وأنَّها من جهةٍ أخرى نعمٌ تحتاج إلى شيءٍ من بذل المجهود كعلم الخطّ وفهم التّوراة. قال تعالى: ﴿وإذ علَّمتك الكتاب والحكمة والتَّوراة والإنجيل﴾، والمراد بالكتاب الكتابة والخطّ. وقد كان

---

(١) سورة مريم: الآيات ٢٩ ــ ٣٣.

عليه الصَّلاة والسَّلام قارئاً كاتباً. والحكمة هي صحَّة الفهم. والتَّوراة هو الكتاب السَّماويّ الّذي أوحاه الله تعالى إلى موسى عليه السَّلام. والمعروف أنَّ الإنجيل، وهو الكتاب السماوي الّذي أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السَّلام، مكملٌ للتَّوراة.

وبعد حديث الآية الكريمة عن بعض مظاهر الفضل المحض من الله تعالى كان حديث الآية الكريمة عن بعض معجزات عيسى عليه السَّلام. ومن هذه النّعم ما له علاقة بالخلق بمعنى التَّقدير المستقيم في الأصل[1]، وإنَّ عملية الخلق هذه لها صورٌ ثلاث بإذن الله تعالى تمثّلت في خلق الطّين كهيئة الطير، والنَّفخ في تلك الهيئة فتكون طيراً بإذن الله تعالى، وإخراج الموتى من قبورهم بأن يدعوهم فيستجيبوا له بإذن الله تعالى. وقد تخلّل عمليَّة الخلق هذه إبراء الأكمه وهو الأعمى الّذي لا يبصر شيئاً المطموس البصر[2]، وإبراء الأبرص.

ثمّ كان التَّحوّل إلى نعمة دفع الأذى عن عيسى عليه السَّلام وإلى تلك النِّعمة أشار قوله تعالى: ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبيّنات فقال الّذين كفروا منهم إن هذا إلاَّ سحرٌ مبين﴾، إنَّ ربّ العزّة منع كافري بني إسرائيل عن عيسى عليه السَّلام حينما جاءهم عليه الصَّلاة والسَّلام بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات فقالوا ليس هذا الّذي جاء به عيسى عليه السَّلام سوى سحرٍ بيِّن ولأجل ذلك همّوا بقتلك فمنعتهم عنك ورفعتك إليّ.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «خلق» (١٥٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٨٣).

وبشأن الخطوة الأخرى المتعلّقة بتبيين بعض مظاهر إعجازها في ترتيب حبّات المعاني نودّ أن نقف بالذّات عند قوله عزّ من قائل: ﴿وإذ تخلق من الطّين كهيئة الطّير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني﴾. ويلاحظ أنّ الحديث عن الخلق جاء في ثلاث صور، كلّ صورة تتحدّث عن مرحلة. أمّا المرحلة الأولى فإنّها مرحلة الخلق من الطّين كهيئة الطّير. وهذه هي المرحلة الطّينيّة. وأمّا المرحلة الثّانية فإنّها مرحلة النّفخ في تلك الهيئة من الطّين فتكون طيراً بإذن الله تعالى. وبهذا تنتهي المرحلتان المتعلّقتان بخلق الطّير، وتبقى بعد ذلك مرحلةٌ ثالثةٌ هي مرحلة إخراج الموتى من قبورهم. ومن البيّن أنّ ثمّة تدرّجاً إلى الصّعوبة الأشدّ وتحوّلاً إلى الاستحالة الأكبر. ومن البيّن كذلك أنّ رباط الخلق هو الّذي يربط الحلقات الثلاث أو المراحل الثّلاث.

وإنّه بالنّظر إلى الآية الكريمة يتبيّن أنّها فصلت بين عمليتي خلق الطّير وبين عملية إخراج الموتى بعمليّة إبراء الأكمه والأبرص. فما الحكمة من هذا الفصل؟ وهل ثمّة شيءٌ متعلّقٌ بالنّظم في هذا الفصل؟ وبشأن الحكمة من الفصل نستطيع أن نفهم أوّلاً أنّ عمليتيّ خلق الطّين كهيئة الطير فالنفخ فيها تكادان تكونان عمليّةً واحدة أو عملاً واحداً لأنّ عمليّة خلق الطّين كهيئة الطّير عمليّة سهلة يستطيع أن يقوم بها كلّ إنسان ولكنّ المعجزة تكمن في جعل الطّين طيراً حقيقيّاً بإذن الله تعالى. ولذلك جاءت الفاء العاطفة الدّالّة على التّرتيب مع التّعقيب: ﴿وإذ تخلق من الطّين كهيئة الطّير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾، ولعلّ سائلاً يسأل: ما دام عمل الطين في هيئة الطّير سهلاً فلماذا جاء القول: «بإذني» عقب القول: ﴿وإذ تخلق من

الطّين كهيئة الطّير بإذني﴾، خاصّة وأنّه جاء كذلك في القول: ﴿فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾، والجواب على ذلك أن عمل عيسى عليه السّلام من الطّين كهيئة الطّير هو الشّقّ الأوّل الضّروري بين يدي الشّقّ الآخر المتمثّل في تحوّل الصّورة إلى حقيقة. وعليه فالمعجزة ذات شقّين يترتّب آخرهما على أوّلهما ولهذا جاء عقب كلّ من الشّقين القول: «بإذني».

ولم يقف مظهر الإعجاز عند هذا الحدّ إنّما تجاوزه إلى عدم مجيء «إذ» في القول: ﴿وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني﴾، وإلى مجيء إذ في القول: ﴿وإذ تخرج الموتى بإذني﴾، فما الحكمة من المجيء والحذف؟

أمّا الحكمة من مجيء «إذ» في القول: ﴿وإذ تخرج الموتى بإذني﴾، فلأنّ في هذا المجيء بعد الحذف تنبيهاً إلى أنّ هذه العمليّة المتعلّقة بالخلق موصولةٌ بالعمليّة السابقة ذات الشّقين المتعلّقين بالخلق كذلك ولهذا جاء بين يدي هذه العمليّة القول: «وإذ». وأمّا الحكمة من حذف «إذ» في القول: ﴿وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني﴾، فلأنّ في الحذف تنبيهاً إلى أنّ إبراء الأكمه والأبرص عمليّةٌ مغايرةٌ لما سبقها ولحق بها. ولماذا جاء النّصّ على هاتين المعجزتين المغايرتين لما سبقهما ولحق بهما؟ لأنّهما معجزتان عظيمتا الخطر من ناحية ولأنّ لهما علاقةً ولو طفيفة بعمليّة الخلق البارزة في المعجزة السابقة واللّاحقة من ناحية أخرى. وتفسير ذلك أن إبراء الأكمه يعني إعادة الإبصار إلى من وُلد أكمه مطموس البصر. إنّ العين بحاجةٍ إلى عمليّة إيجادٍ بإذن الله تعالى ثمّ إنّ البصر بحاجةٍ إلى عمليّة إيجادٍ أخرى. وإنّ شيئاً غير بعيدٍ من هذا يقال عن الأبرص الّذي أصبح البياض جزءاً من البشرة في حقّه.

وإذا كان دليلنا على أنّ معجزة إبراء الأكمه والأبرص تختلف إلى حدّ

كبير عن معجزتي الخلق السابقة واللاحقة هو حذف «إذ» من القول: ﴿وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني﴾، فإنَّ دليلنا على عظم خطر هذه المعجزة المتعلّقة بالأكمه والأبرص هو مجيء القول: «بإذني» وعدم الاستغناء عنه. ويلاحظ أنَّه تمّ الجمع بين إبراء الأكمه والأبرص لأنَّهما عملان يكادان يكونان من جنسٍ واحدٍ لتعلّقهما بالبشرة. في حقّ الأكمه تحتاج البشرة إلى شقّ كي تظهر العين، وفي حق الأبرص تحتاج البشرة إلى أن تعود إلى طبيعتها. كما يلاحظ أنَّ القول: «بإذني» جاء مرّاتٍ أربعا، مرَّةً بعد خلق الطّين كهيئة الطّير دليلاً على عظم هذا الشّقّ من المعجزة. ومرَّة ثانيةً بعد النَّفخ في هيئة الطين. ومرَّة ثالثة في عمليَّة إبراء الأكمه والأبرص، ومرَّة رابعةً وأخيرة في عمليَّة إخراج الموتى من قبورهم. والله أعلم.

وإذا كان ظرف الزَّمان «إذ» جاء في الآية الكريمة مرّات سبعاً، هذا إلى أنَّ كلّ نعمةٍ من نعم الله تعالى على عيسى عليه السَّلام قد صدّرت به فإنَّ هذا الظّرف تصدّر به الآية الكريمة التَّالية، وكذلك الآية الكريمة التي تليها، وهما تتحدثان في موضوعٍ واحد وهاتان هما:

الآيتان رقم (١١١، ١١٢)

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

من نعم الله تعالى على عيسى عليه السَّلام أنَّه جلّ وعلا أوحى إلى الحواريّين، وهم وزراء عيسى عليه السَّلام على دينه[1]، وحي إلهام بأن

(١) تفسير الطبري (٧/ ٨٣).

يؤمنوا بالله تعالى ربّاً وبعيسى عليه السَّلام رسولاً. وها هو ذا ربّ العزّة يمتنّ على عيسى عليه السَّلام بذكر هذه المنّة، وها هم الحواريّون يعلنون إيمانهم بالله تعالى وبعيسى عليه السَّلام إذعاناً لأمر الله تعالى واستسلاماً لمشيئته جلّ وعلا. ولمّا كان الحواريّون فقراء فقد قالوا لعيسى عليه السَّلام يا عيسى ابن مريم هل يستجيب لك ربّك جلّ وعلا إن سألته[1]، أن ينزّل علينا مائدةً من السَّماء نراها تنزل علينا بأعيننا؟ ولمّا كانت هذه معجزةً ماديةً فقد قال عيسى عليه السَّلام لهؤلاء الحواريّين الأصفياء الأتقياء: ﴿اتّقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾، بالله تعالى ربّاً وبي رسولاً فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد اصطفاني بالكثير من الآيات المعنويّة والمادّية وليس طلبكم سوى معجزةٍ مادّيّة. هذا إلى دلالتها على الفقر وعلى الحاجة إلى الطّعام فهلاّ توكّلتم على الله تعالى وامتنعتم عن طلب هذه الآية الماديّة؟

ولكنَّ الحواريّين أكّدوا طلبهم وبيّنوا الحكمة منه وذلك، في:

الآية رقم (١١٣)

قال تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

قال الحواريّون لعيسى ابن مريم عليه السَّلام إنّا بطلبنا نزول المائدة من السَّماء نريد أن نأكل منها لأنّا فقراء ومحتاجون إلى الطَّعام، ولتطمئنّ قلوبنا وتزداد يقيناً ويقوى إيماننا ولنعلم علم اليقين أنّك قد صدقتنا في

(١) تفسير الطبري (٧/ ٨٤).

قولك إنَّك رسول ربّ العالمين ونكون على نزول المائدة من السَّماء من الشَّاهدين أنَّها آيةٌ من الله تعالى لك بأنَّك رسول ربّ العالمين. وتجاه إلحاح الحواريّين في طلب نزول المائدة من السَّماء دعا عيسى عليه السَّلام ربّه وذلك، في:

الآية رقم (١١٤)

قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

إنَّ عيسى ابن مريم ـ ويلاحظ أنَّه في كلّ المواضع التي يجيء فيها ذكر عيسى عليه السَّلام في القِسْم ينصّ على أنَّه ابن مريم ـ إنَّ عيسى عليه السَّلام يدعو ربّه جلّ وعلا قائلاً: اللَّهم يا ربّنا، يا ذا الجلال والإكرام، يا من ربّيتنا بنعمك وآلائك نسألك أن تنزل علينا مائدةً من السَّماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا، للموجودين منّا والّذين سوف يأتون بعدنا، نعظّمك ونعبدك فيه يا ربّنا كلّ العبادة. كما تكون تلك المائدة آيةً منك على إرسالك عبدك عيسى عليه السَّلام ومعجزةً كبرى من المعجزات التي أيّدت عبدك بها، وارزقنا يا ربّنا وأنت خير الرَّازقين.

وقد استجاب الله تعالى دعاء عيسى عليه السَّلام ونزلت المائدة وإلى ذلك أشارت:

الآية رقم (١١٥)

قال تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

إنَّ ربّ العزّة يبيِّن بأنَّه سوف ينزّل المائدة، استجابةً لدعاء عبده المصطفى عيسى ابن مريم عليه السَّلام على بني إسرائيل ويلاحظ أنَّ الجارّ والمجرور «عليكم» هو الّذي يجيء بالذّات لأنَّ قوم عيسى عليه السَّلام هم الّذين طلبوها وألحّوا في الطَّلب ومن ثمّ فالمسؤوليَّة واقعةٌ عليهم. وإنَّ الشّقّ الآخر من الآية الكريمة يبيِّن أبعاد هذه المسؤوليَّة ويقرّر أن من يكفر بعد نزول المائدة منهم، فإنَّ الله سبحانه وتعالى سوف يعذّبه عذاباً لا يعذّبه جلّ وعلا أحداً من عالمي زمانهم[١]، عن ابن عبّاس قال: فأقبلت الملائكة تطير بمائدةٍ من السَّماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر النَّاس كما أكل منها أوَّلهم[٢]، والمائدة بمعنى الخِوان عليه طعام[٣]، عن عمّار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: نزلت المائدة خبزاً ولحماً وأمروا ألَّا يخونوا ولا يدّخروا ولا يرفعوا لغد فخانوا وادّخروا ورفعوا فمسخوا قردةً وخنازير[٤].

ونستطيع أن نفهم من الآية الكريمة سنّة الله تعالى في الأمم السّابقة

---

(١) انظر تفسير الطبري (٧/ ٨٨)؛ وتفسير ابن كثير (٢/ ١١٦).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٨٥ و ٨٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١١٦)؛ وتفسير الطبري (٧/ ٨٥)؛ والخوان بكسر الخاء الذي يؤكل عليه.

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٨٧).

على أمّة محمد ﷺ بأنَّ أتباع الرّسل إذا طلبوا آياتٍ بعينها فتحقَّقت وأصرّوا بعد ذلك على كفرهم أن يأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر. إنَّ هذا هو الّذي حصل لبني إسرائيل الّذين كفروا بعد نزول المائدة. وإلى هذا المعنى أشار قوله تعالى في سورة الأنبياء[1]: ﴿بل قالوا أضغاث أحلامٍ بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآيةٍ كما أُرْسِل الأوّلون. ما آمنت قبلهم من قريةٍ أهلكناها أفهم يؤمنون﴾، وقوله تعالى في سورة الحِجْر[2]: ﴿وقالوا يا أيّها الّذي نُزِّل عليه الذّكر إنَّك لمجنون. لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين. ما ننزّل الملائكة إلاَّ بالحقّ وما كانوا إذاً منظرين. إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون﴾، وإنَّ القوم الوحيدين الّذين شاء الله تعالى إنقاذهم من هذا النّوع من العذاب ونفعهم إيمانهم هم قوم يونس عليه السّلام وإلى ذلك أشار قوله تعالى[3]: ﴿إنَّ الّذين حقّت عليهم كلمة ربّك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كلّ آيةٍ حتى يروا العذاب الأليم. فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها إلاَّ قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدّنيا ومتّعناهم إلى حين﴾.

ولمّا كان أتباع عيسى عليه السّلام قد غلوا فيه عليه السّلام وفي أمّه مريم البتول فقد تحوّل الحديث إلى هذه المسألة الغاية في الأهميّة. وإنَّ من ألطف ما نودّ أن نلفت الانتباه إليه هو أنَّ كلّ مرّة يجيء فيها في هذا القسم من السّورة ذكر عيسى عليه السّلام ينصّ على أنّه عليه السّلام هو

---

(١) الآيتان ٥، ٦.

(٢) الآيات ٦ ــ ٩.

(٣) سورة يونس: الآيات ٩٦ ــ ٩٨.

عيسى ابن مريم. وكأنَّ في هذا النصّ تهيئةً للحديث عن عيسى عليه السَّلام وأمّه. ولا مانع من التَّنبيه إلى أنَّ عدد المرَّات في القرآن الكريم التي نصَّ فيها على أنَّ عيسى عليه السَّلام هو ابن مريم أكثر من عدد المرات التي لم يجيء فيها هذا النصّ. وإنَّ الآية الكريمة التالية من الأدلّة على ذلك، فإلى:

الآية رقم (١١٦)

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾.

بدأت آيةٌ كريمةٌ سابقة بالقول: ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم﴾، وتبدأ هذه الآية الكريمة المعطوفة عليها بالقول: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم﴾، إنَّ ربّ العزّة الّذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء والّذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً والّذي يعلم ما قال عيسى عليه السَّلام عبد الله ورسوله يسأل يوم القيامة عيسى عليه السَّلام: ﴿أأنت قلت للنَّاس اتَّخذوني وأمّي إلٰهين من دون الله﴾، والمقصود تبكيت الغالين من أتباعه عليه السَّلام الّذين اتّخذوه عليه السَّلام وأمّه إلٰهين من دون الله تعالى. ولمّا كان اتّخاذ عيسى عليه السَّلام وأمّه مريم البتول إلٰهين من دون الله تعالى اعتداءً من غلاة أتباع عيسى عليه السَّلام على الله تعالى الّذي من حقّه أن يُعْبد وأن يُفْرد جلّ وعلا وحده لا شريك له بالعبادة فقد كان أوّل ما جرى على لسان عيسى عليه السَّلام متعلّقاً بالذّات العليّة: «قال سبحانك»، والمعنى: تنزيهاً لك عن كلّ ما ألصقه بك كلٌّ من الغلاة والمشركين. وكأنَّ القول: «سبحانك» يجيء أمام اسم ضمير المخاطب المنفصل العائد على

عيسى عليه السَّلام وذلك في القول على لسان الذَّات العليَّة: «أأنت» وإنَّ السؤال في مثل هذه الصّورة يحمل الكثير من المعاني وكأنَّ هذا القول لفظاعته لا يصدر ممّن هو أقل شأناً من المخاطب، فكيف يصحّ صدوره من المخاطب المصطفى المختار عيسى عليه السَّلام!

وبعد تنزيه عيسى عليه السَّلام الذّات العليَّة عن اتّخاذ الصاحبة والولد وعن كلّ ما ألحقه بها الغلاة والمشركون يتحوّل عليه السَّلام إلى الحديث عن نفسه. جاء على لسانه عليه السَّلام قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ﴾، ويلاحظ مجيء: «يكون» في صيغة الزَّمن المضارع الدالّ على الاستمرار. ويلاحظ كذلك تقدّم الجار والمجرور «لي» على الجارّ والمجرور: «بحقّ» إنَّه عليه السَّلام ينفي أن يكون لنفسه أيّ حق من هذا القبيل.

ومن الّذي يعلم أنَّ عيسى عليه السَّلام لم يقل ما ليس له بحقّ من اتّخاذه وأمّه إلٰهين من دون الله تعالى؟ إنَّه جلّ وعلا الّذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً. وها هو ذا عيسى عليه السَّلام يفرّ إلى علاَّم الغيوب. قال تعالى: ﴿إن كنت قلتُه فقد علمتَه﴾.

وكما نفى عيسى عليه السَّلام ذلك القول عن نفسه وفرّ إلى علاَّم الغيوب الّذي يعلم أنَّ عيسى عليه السَّلام لم يقل شيئاً من ذلك نفى عليه السَّلام أن يكون قد تسرَّب لنفسه الطَّاهرة شيءٌ من ذلك، كما أنَّه عليه السَّلام فرّ هذه المرَّة كذلك إلى الله تعالى الّذي يعلم ما توسوس به كلّ نفس في حين لا يعلم عيسى عليه السَّلام إلاَّ ما علَّمه الله تعالى. قال عزّ من قائل على لسان عيسى عليه السَّلام: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾.

وكما كان في قول عيسى عليه السَّلام تدرج من الظاهر إلى الخفي، من القول إلى وسوسة النفس، كان في قوله عليه السّلام بعد ذلك تدرّج من الخفيّ إلى الأشدّ خفاءً وذلك في القول: ﴿إنَّك أنت علاَّم الغيوب﴾، إنَّ الله سبحانه وتعالى يعلم كلّ غيب ومنها ما توسوس به كلّ نفس. وليس بخافٍ مجيء توكيدين في القول: «إنك أنت» كما أنَّنا بصدد صيغة المبالغة: «علاَّم» الدّالّة على إحاطته جلّ وعلا بكلّ شيءٍ علماً، وبصدد لفظة «الغيوب» التي جاءت في صيغة الجمع وليس في صيغة المفرد.

أمّا الّذي قاله عيسى عليه السَّلام لقومه فهو ما أشارت إليه:

الآية رقم (١١٧)

قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾.

تبيِّن الآية الكريمة أنَّ عيسى عليه السَّلام لم يقل للنَّاس إلاَّ ما أمره به جلّ وعلا بأن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له ربّ عيسى عليه السَّلام وربّ النَّاس أجمعين. ويلاحظ أنَّ عيسى عليه السَّلام ينفي القول، وليس دون القول شيءٌ يصل إلى الآخرين كي ينفيه عيسى عليه السَّلام، خاصَّةً وأنَّ السّؤال على لسان ربّ العزّة في الآية الكريمة يتعلّق بالقول: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله﴾، كما يلاحظ أنَّ عيسى عليه السَّلام ينزّل التَّعاليم من الله تعالى منزلة الأمر: ﴿ما قلت لهم إلاَّ ما أمرتني به﴾ وليس فوق الأمر شيءٌ يصل إلى عيسى عليه السَّلام كي يثبته في حق

الذّات العليّة. وكلّ ذلك دليلٌ أكيد على دقّة الفصل فيما جرى على لسان عيسى عليه السَّلام بين مقام الألوهيَّة للذَّات العليَّة وبين مقام العبوديَّة الّذي لا يمكن إلاَّ أن يكون في حدوده أفضل المنعم عليهم من المرسلين والنَّبيّين فكيف بمن دونهم في الفضل.

ولمّا كان عيسى عليه السَّلام قبل رفعه على علمٍ بظاهر ما أتى قومه وما تركوا فقد نزّل عليه السَّلام نفسه منزلة الشَّهيد عليهم: ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم﴾، ونستطيع أن نفهم من تقديم الجارّ والمجرور «عليهم» اتّجاه الاهتمام إلى القوم مظهراً من مظاهر إحساس رسل الله تعالى العميق بالمسؤولية. ويؤكّد هذا المعنى لفظ: «شهيداً» وليس شاهداً، ممّا يفهم منه الإحاطة بدقائق الأمر المشاهَد للدّرجة التي يصحّ أن ينزّل معها من أحاط بتلك الدقائق منزلة الشَّهيد وليس الشّاهد فقط.

أما وقد رفع الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السَّلام إليه فغاب عن أتباعه، ولمّا كان يطلق في اللّغة على الحاضر لفظ الرَّقيب تنبيهاً على حالة الغياب الأخرى، فقد جاء في الجزئية التالية على لسان عيسى عليه السَّلام في حقّ الذَّات العليَّة القول: ﴿فلمّا توفّيتني كنت أنت الرَّقيب عليهم﴾، إنَّ الرَّقابة بالغة ودقيقة ومحكمة. ومن البيِّن أنَّ التَّحوّل من لفظ الشّهيد إلى لفظ الرَّقيب قد أكّد مقام الألوهية الرفيع. ولمّا كان لفظ الرَّقيب في الحقيقة يؤدّي معنى لفظ الشَّهيد، وقد عرفنا الحكمة من التَّنويع من استعمال اللَّفظين، ولمّا كان ربّ العزّة شهيداً على قوم عيسى عليه السَّلام في حال حضوره وفي حال غيابه على السَّواء، ولمّا كان ربّ العزّة شهيداً على كلّ شيء جاء في الجزئية الكريمة الأخيرة على لسان عيسى عليه السَّلام ما يفيد هذه المعاني. قال تعالى: ﴿وأنت على كلّ شيءٍ شهيد﴾.